4- الترجمة في العصر الحديث:

يمتد تاريخ الترجمة في العصر الحديث من الحملة الفرنسية بمصر إلى تاريخ نزول المستعمر بها وبالبلاد العربية.

1.4- الحملة الفرنسية (1798- 1801) وحركة الترجمة:

كانت الحملة بأشد الحاجة إلى مترجمين دائمين لتلقي الأوامر ونقلها ولترجمة المنشورات وتسجيل المحاضر في الدواوين، أو الترجمة المباشرة في نقل الحديث بين الحكام والمحكومين.

لم تُعمر الحملة الفرنسية بمصر أكثر من ثلاث سنوات، ورغم الفترة القصيرة إلا أنها تركت فيها الأثر المشهود، إذ اصطحبت الحملة مطبعة مجهزة بالحروف العربية ومخابر معدة للبحث والتدقيق. وكانت الحملة تضم عدة اختصاصات في شتى فروع العلوم الحديثة كالكيمياء والفيزياء وعلم الآثار على وجه الخصوص. وجهزّ نابليون مطبعة تعمل بالحروف العربية والفرنسية واليونانية كانت تُسمّى "مطبعة جيش الشرق" أو "مطبعة الجيش البحري" ثم تغيّر اسمها ليصبح "المطبعة الأهلية" غير أن الكاثوليك بروما سبقوا نابليون في تجهيز مطبعة بالحروف العربية للاتصال بالكنائس الشرقية. ومن أهم الأعمال التي قامت بها الحملة إقامة "المجمع العلمي المصري" والمدرسة العليا في مصر، وكان ذلك بأمر من نابليون في 22 أوت 1798.

أما أهداف المدرسة فقد وردت في كتاب جمال الدين الشيّال : "تاريخ الترجمة في عهد الحملة الفرنسية" دار الفكر العربي، 1950 ص 66، وتتمثل في ما يلي:

1- تطور العلوم والمعارف في مصر.

2- دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الأبحاث.

كما كان في المدرسة لجان للترجمة ولجان للطباعة وبها مكتبة هامة. ويمكن اعتبارها أول نظام حديث للبحث والترجمة في المشرق العربي، وبهذه الطريقة أقيمت مدارس حربية ومدارس فنية فيما بعد. ورغم مساعي الحملة وقيام المدرسة العليا، فإن الحملة لم تترك من الأعمال المترجمة إلا أربعة عناوين. وقد نظّم نابليون حملته بإعداد المترجمين المرافقين للحملة في ماي 1798، وكوذن لجنة العلوم والفنون حتى يتسنّى له دراسة الآثار المصرية والتاريخ والجغرافية والحالة الطبيعية لمصر. وكان من بين المترجمين علماء مستشرقون أطلق على بعضهم اسم "مترجمي الجيش لحملة مصر".(علي تابليت، 1996، ص 31)

2.4- حركة الترجمة في مصر والشام وتونس بعد حملة نابليون على مصر:

بعد حالة الركود العلمي والمعرفي، بزغت في الأفق العربي ومضات من نور في مطلع القرن ١٩الماضي. فقد تحقق للعرب في كافة أمصارهم أن العلم هو مصدر القوة، وأن أوروبا بعد ضعفها بالأمس، قد

امتلكت الآن القوة المادية والصناعية والعسكرية بفضل تقدم العلوم فيها، وليس ممارستها للاستعمار والسيطرة والغزو، مستغلةً ضعف الشعوب والدول في القارتين الآسيوية والأفريقية، وبسط سلطانها على هذه الشعوب والدول بحجة تدريبهم وتثقيفهم وتنمية وعيهم للوصول إلى الاستقلال التام، ليس ذلك إلا لاستثمار مواردها الطبيعية واستغلال قواها البشرية، وجعلها سوقاً لمنتجاتها المصنعة، وانتشاراً لنفوذها السياسي وللسيطرة الكاملة. وللحفاظ على السيادة القومية والكرامة الوطنية، ولصون الذات الشخصية والهوية الثقافية، استقرّ في أذهان الطلائع العربية الطامحة إلى الحرية والاستقلال، ضرورة استئناف ما انقطع من تاريخها والتسربل بما يجب من أسباب المنعة والقوة لمعاودة السير في طريق التقدم العلمي، بنشر التعليم وإقامة الصناعات المختلفة لبناء إنسان عربي جديد بعد طول الاستعمار والتعتيم. ولتبني وإبراز فائدة الترجمة نأتي بالإيضاح التالي: يقول علماء النبات أن النبات إذا طعم ولقح بنبات غيره، أنتج ثمراً أحلى من النباتين الأولين، فالتفاح إذا طُعم بالكمثرى جاء بفاكهة جديدة أطيب مذاقاً، ويقول علماء التاريخ والاجتماع والحضارة أن الشعب أو المجتمع أو الدولة التي تعيش وحدها، وتنطوي على نفسها ولا يصيبها أي تطعيم أو تلقيح من حضارة أخرى، يكون مصيرها الضعف والانحلال. وهكذا نجد توالي الحضارات القديمة التي كانت دائماً على اتصال ببعضها. فإذا ضعفت الحضارة القديمة قامت الحضارة اللاحقة، ولهذا لا نجد الحضارة في القديم وقفاً على شعب واحد دون غيره. بل تُشبه الحضارة دوماً الوديعة يتناولها الشعب القوى ليحميها وينمّيها ويزيد فيها. وعند ضعفه وانحطاطه أو كلاله تتحول إلى الشعب الناهض حديثاً الذي تكمن فيه عناصر التجدد والقوة والإبداع، وهكذا دواليك. إن طرق تطعيم الحضارات بين بعضها والبعض الآخر كثيرة ومختلفة، وأن اختلافها بحسب الزمن والعصر فقد يكون الاتصال بين الحضارات عن طريق، الرحلات أو الهجرة أو الحروب أحياناً، التجارة أو الزواج أيضاً، وغير ذلك من الطرق الحديثة. ولكن نقل العلوم من حضارة إلى أخرى وترجمتها من لغة إلى لغة كانت ولا تزال هي الوسيلة المشتركة والناجحة. (سالم العيس، 1999، ص 31-32)

1.2.4- في مصر:

كان لحركة الترجمة بعد الحملة أثر كبير في النهضة العصرية في الشرق والمغرب العربيين خاصة في عهدي محمد علي وخير الدين في تونس. وقد حظيت الترجمة في مصر، خلال المرحلة الأولى من النهضة الحديثة، باهتمام كبير. فانطلقت في بادئ الأمر، على يد جماعة من السوريين واللبنانيين الذي بذلوا جهوداً عظيمة للتغلب على الصعوبات الناشئة من افتقار اللغة إلى المصطلحات والمدلولات

الحضارية، واختلاف التراكيب بين العربية واللغات الأوروبية، بالإضافة إلى جهل المترجمين للعلوم التي ينقلونها، فلما عاد أعضاء البعثات المصرية من الخارج كان عملهم أسهل من عمل أسلافهم.

يمكن أن نعتبر عام ٧٩٧م،١٨١هـ السنة الأولى التي قضى خلالها محمد علي على المماليك، حيث انطلق منها لتنفيذ السياسية الإصلاحية التي تبناها محمد علي. وفي نهايتها أنشأ المدرسة الحربية الأولى لتعليم أولاد المماليك وعلمائهم في القلعة، وكانت اللغة الإيطالية هي التي تدرس في هذه المدرسة. وكان المربون قد استقدمهم من الأجانب كما مر ذكره. وفي عام ١٨٠٩م إلى ١٨١٦م كان محمد علي يرسل البعثات إلى إيطاليا وفرنسا للتبحر في تعلم اللغات الإيطالية- الفرنسية- التركية للتمكن من ترجمة الكتب الأجنبية المطلوب ترجمتها، حتى ومن الحصول على ترجمات أمتن لغةً وأسلم تعبيراً، لم يتوان محمد علي من إلحاق بعثات من شيوخ الأزهر بالمترجمين لمساعدتهم على ضبط اللغة ووضع المصطلحات المناسبة. وصارت مشاركة الشيوخ في عملية النقل تقليداً خضع له جميع المترجمين، ولم يُعفى منه سوى خريجي الأزهر من أعضاء البعثات والخريجين. (سالم العيس، 1999، ص 33)

ففي مصر، أقام محمد علي المدرسة الحربية سنة 1828، والمدرسة الطبية (1827) ومدرسة الطب البيطري (1828) ومدرسة الصيدلة (1830) ومدرسة الولادة (1832). أما أهم المدارس بالنسبة للترجمة فكانت "مدرسة الألسن" باقتراح من رفاعة الطهطاوي، الذي سافر في بعثة علمية إلى فرنسا سنة 1826 كإمام للبعثة ثم أصبح طالب علم.

واختصت مدرسة الألسن في الترجمة وتكوين المترجمين، وتخرج منها أول فريق سنة 1841 أي السنة التي عرفت نشأة غرفة الترجمة التي كانت تشمل أربعة أقسام هي:

- قلم ترجمة الكتب المتعلقة بالعلوم الرياضية.
- قلم ترجمة الكتب المتعلقة بالعلوم الطبيعية.
- قلم ترجمة الكتب المتعلقة بالمواد الاجتماعية أو الأدبيات.
- قلم الترجمة التركية.

فأوفد محمد علي البعثات إلى الغرب فكانت الأولى إلى إيطاليا عام (1809) لاطلاع واقتناء الكتب، ووفّر محمد علي مبالغ هامة لهذا الغرض. كما استجلب 6000 كتابا فرنسيا سنة (1818)، وبلغ عدد البعثات بين (1809 و 1848) سبع بعثات غلب عليها الطابع العسكري. (علي تابليت، 1996، ص 36-37)

وكان محمد علي يرمي إلى غرضين من إرساله البعثات المختلفة إلى أوروبا:

الغرض الأول: أن يكون في مصر جيل من الأساتذة والعلماء تلقوا العلم الأوروبي في أوروبا وبلغاتها ليحلوا بعد عودتهم محل الأساتذة والأطباء والمهندسين والضباط والصُنّاع من الأجانب، ونجح محمد علي في ذلك إلى حد كبير.

أما الغرض الثاني: أن يكون أعضاء هذه البعثات أداة صالحة لنقل علوم الغرب وفنونه وترجمتها إلى اللغة العربية. ".(علي تابليت، 1996، ص 40)

مدرسة الألسن:

أنشئت مدرسة الألسن بداية 1835 باسم مدرسة الترجمة ثم تغيّر اسمها فأصبح " مدرسة الألسن " وكان مقرها السراي المعروفة ببيت الدفتر – دار يحي الأزبكية. وقد أنشئت هذه المدرسة تحقيقا لاقتراح تقدم به رفاعة الطهطاوي لمحمد علي، وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات في البداية ثم أصبحت ست سنوات.

أما لغات التدريس فكانت العربية والتركية والفارسية والفرنسية ثم أضيف إليها فيما بعد الحساب والجغرافيا والتاريخ، غير أن العناية كانت للغتين العربية والفرنسية ثم الانجليزية لفترة قصيرة. وكان مديرها زعيم النهضة العلمية في عهد محمد علي العالم رفاعة الطهطاوي، واتسعت مدرسة الألسن ابتداء من سنة 1941 لتنضم إليها مدارس أخرى.

وقد عمّرت مدرسة الألسن قرابة الخمسة عشر سنة، وبعد تولي عباس الأول العرش سعى سعيه للقضاء على هذه المدرسة بسب الخلافات الشخصية، وتوقفت نهائيا في نوفمبر 1849، ممّا جعل الطهطاوي يسافر إلى الخرطوم للتدريس. (علي تابليت، 1996، ص 39-40)

2.2.4– في سورية :

جاءت كلية الطب في دمشق التي تأسست في عام ١٩١٩م، لتخلف الومضات التي انبثقت على المستوى الجامعي في القصر العيني وفي الكلية الأميركية ببيروت حينذاك، فبدأت التدريس بالعربية منذ افتتاحها واستمرت بنشاط حتى اليوم، بعد أن تبعتها بقية الكليات العلمية باطراد ولاسيما كلية الحقوق. ولقد قامت كلية الطب بدمشق قبل الانتداب وبأمر من الملك فيصل الأول على أنقاض كلية الطب التركية بدمشق المنشئة بأمر سلطاني تركي عام –١٩٠١والتزم أساتذتها منذ افتتاحها، بالتدريس بالعربية وبالترجمة والتأليف لرفدها وخاصة لإيجاد المصطلحات الطبية الملائمة، ويمكن القول بأنهم وفوا بالعهد ووضعوا مؤلفات قيمة بالعربية في مختلف الفروع العلمية.

لقد ركز هؤلاء العلماء بحثهم على إيجاد المصطلحات العلمية القديمة والحديثة لمواكبة التطور العلمي وإغناء اللغة العربية بالمفردات المعبرة حق التعبير. فبالنسبة للقديم استنبطت المصطلحات من الكتب الطبية القديمة مثل قانون بن سيناء- وكامل الصناعة- ومفردات ابن البيطار- وتذكرة ابن داود، وغيره، وبالنسبة للكتب الطبية الحديثة، فقد رجعوا إلى الكتب التي وضعت من قبل سواء في مصر أو لبنان أو في الدولة العثمانية، فأصدروا وترجموا الكتب العديدة، وجعلوا في نهاية كل كتاب جدولاً لمصطلحاته باللغة الأجنبية والعربية.

وقد اشتهر منهم الدكاترة- حسني سبح- ومرشد خاطر- وأحمد حمدي الخياط- ومحمد صلاح الدين الكواكبي- وميشيل الخوري-، وقام كل من مرشد خاطر والخياط والكواكبي بإصدار النسخة العربية لمعجم (كلارفيل) الطبي المتعدد اللغات الذي طبع بالفرنسية والعربية عام ١٩٥٥.وبعد الانطلاقة الأولى لكلية الطب في أعمال الترجمة والنقل تتابعت دون هوادة حركة الترجمة في سائر الكليات والمؤسسات العلمية للدولة والخاصة فأغنت خزانة المكتبة العربية بالكتب الكثيرة المتنوعة مما أتاح للمواطنين وطلاب المدارس والجامعات الاتصال ومواكبة تطور العلم والمعرفة، خاصة بعد أن زخرت بطون هذه الكتب بالمصطلحات والمفردات المبثوثة أو المبتكرة أو المشتقة أو المعربة أو الحديثة. ولابد من ذكر هذه الكليات التي تتابعت بنجاح في تدريس اختصاصاتها العلمية باللغة العربية، مثل: كليات الطب الأخرى- كلية طب الأسنان- كلية الصيدلة- كلية البيطرة- مدارس التمريض- وكليات الهندسة بأنواعها: المدنية والمعمارية والميكانيكية والكهربائية والنفطية والزراعية. وكليات العلوم بأقسامها: الرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والنبات والحيوان بالإضافة إلى العلوم الاجتماعية والإنسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السكان والاقتصاد والحقوق والتجارة والمحاسبة التي تدرس في كليات الآداب والحقوق والاقتصاد والتجارة. هذا بالإضافة إلى المعاهد الفنية أو الحرفية العديدة. (سالم العيس، 1999، ص 42)

3.2.4- في لبنان:

فيما كانت مصر تنعم بالاستقرار السياسي والنشاط العلمي، وكان لبنان في ظل حكم الأمير بشير الثاني، الذي امتد من عام ١٧٨٩م-١٨٤٠م- يترنح بسبب الفتن والاضطرابات، وكان هذا الأمير في صراع مستمر مع مناوئيه في الداخل والولاة العثمانيين في الأطراف، وفي ظل ذلك الاضطراب لم يكن للحركة الثقافية أن تنشأ أو تزدهر، حيث لابد لازدهار الثقافة من الاستقرار السياسي والأمني، وهذا لم يكن متوفراً في ذلك الوقت.

غير أنه في غمرة ذلك الاضطراب كانت الإرساليات الأجنبية في لبنان ساعية في إنشاء المدارس، وقد أحدث وصول المرسلين الأميركيين البروتستانت)إلى لبنان ومباشرتهم بتأسيس المدارس والدعوة لمذهبهم هزة لدى الإرساليات الكاثوليكية، واحتدمت المنافسة بين الجهتين وتميزت بطابعها العملي وبتوخي الغلبة في مجال العلم من جهة وإثبات الطرق العلمية الخاصة بكل منهما. إن أول مدرسة أقامها الأميركيون كانت في بيروت عام ١٨٣٥م، وبعد خمس سنوات تنبهوا إلى ضرورة فتح مدارس إرسالية في الجبل، فأسسوا في قرية عبيّة وسوق الغرب وأخيراً في بيروت. وبالمثل أقام اليسوعيون، بعد عودتهم إلى لبنان عام ١٨٣١م ، المدارس والأديرة في عين تراز وبكفيا وزحلة وبيروت وغيرها. غير أن الحوادث الطائفية عام ١٨٦٠م أدت إلى هجرة الكثيرين إلى الخارج وخاصة إلى مصر وأميركا وإلى الساحل وبيروت.

كما أن الترجمة وإن ركدت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بسبب الاضطرابات فإنها شهدت تحولاً كبيراً خلال النصف الثاني منه، سواء في الإنتاج العلمي أو النقل، وكان العامل الفاعل لهذا التحول هو: انتشار المدارس والصحف والمجلات، التي اعتمدت على الترجمة فتعاظم دور الترجمة في إصدار الصحف والمجلات خاصة لنقل الأخبار السياسية والحوادث والنزاعات المستقاة من جرائد الغرب أو من المحيط. فأصبحت هذه الجرائد والمجلات أكثر صلة بمجلات الغرب، فنقلت الكتب والمقالات الأدبية والطبية والفلكية والاجتماعية، وأخبار المخترعات والمكتشفات الآثارية والنوادر الطبيعية والقصص القصيرة والطويلة المتسلسلة. إنه ضيق رقعة لبنان وقلة عدد سكانه وضعف مواردهم وسياسة القهر الذي مارسها المستعمر العثماني حال دون إمكان استغلال هذه الانطلاقة الواسعة في لبنان، فقد هاجرت منه الصفوة المثقفة إلى مصر وشاركت المصريين في بناء نهضتهم الثقافية والحضارية. (سالم العيس، 1999، ص 43-44)

4.2.4- في تونس:

أقام أحمد باشا المكتب الحربي بباردو سنة (1837) ثم تلته مدرستين في العلوم الحديثة. كما نجد حمودة باشا قد أمر بترجمة الكتب التي يحتاجها لأجهزة الدولة، وكان حريصا على معرفة النظم الدستورية الفرنسية. فقد ترجم الدستور الفرنسي سنة (1794) كما حرص سنة 1812 قبل سنتين من وفاته على دراسة ومناقشة "قانون نابليون". ويرجع الفضل في إصلاح التعليم في تونس إلى خير الدين الذي لم يترك أي باب يدقه لتطوير مناهج وأساليب التعليم بعد قراءات طويلة لطرق التعليم في أوروبا. " (علي تابليت، 1996، ص 37)